القبـــــائل والقراءات

للأستاذ عبد الستار أحمد فراج

تمهيد :

لكل قبيلة أوجهة عادة لغوية تميزها عن غيرها وهى ما تعارف الناس الآن على تسميتها لهجة : تتحكم فيها عند نطقها بالألفاظ وأدائها للكلمات ويلحظها من استمع إلى المتكلمين بها فلا يكاد يخطىء فى إلحاق المتحدث بقبيلته أو جهته إذا أوتى شيئاً من الدراية بتلك اللهجات، وهذه العادة كانت تندرج قديماً تحت كلمة اللغة حيث أطلقوها فى الصدر الأول على عدة معان .

١ — على الخلاف بين القبائل فى إعراب الكلمات وبنائها وصيغها ؛ حكى على بن محمد النوفلى قال سمعت أبى يقول لأبى عمرو : خبرنى عما وضعت مما سميته عربية أيدخل فيه كلام العرب كله ؟ فقال لا . فقلت كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهو حجة ؟ قال أعمل على الأكثر وأسمى ما خالفنى لغات .

٢ — على تباين الألفاظ التى تترادف على معنى واحد . وذلك مثل ما يرد فى معاجم اللغة كقولها : الزمهرير القمر بلغة طيىء ، والبينط النساج بلغة اليمن ، والليث الأسد البليغ بلغة هذيل .

٣ — على طريقة أداء الكلمات وإعطائها نغمة أو غنة تميزها عن غيرها من القبائل كالإمالة والتسهيل والتفخيم والترقيق . وذلك مثل ما يروى فى كتب اللغة والأدب من قولها : وليست الإمالة لغة جميع العرب ، وأهل الحجاز لا يميلون ، وأشدهم حرصاً عليها بنو تميم .

وفى الحديث عن صفوان بن سالم أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ يحيى قيل له يا رسول الله تميل وليس هو لغة قريش؟ فقال هو لغة الأخوال بنى سعد .

ويروى أن أبا عمرو كان أوسع علماً بكلام العرب ولغاتها وغريبها ، وأن سيبويه أخذ النحو عن الخليل ويونس وعيسى ابن عمر وغيرهم وأخذ اللغات عن أبى الخطاب الأخفش الكبير .

أما اللغة باصطلاحنا الحديث فقد كانت تسمى اللسان . والقرآن الكريم لم يستعمل غيرها عند إرادتها .

« وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه » سورة إبراهيم .

« لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين » سورة النحل .

« لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين » سورة الشعراء .

« ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم » . سورة الروم .

« وهذا كتاب مصدق لساناً عربيا » سورة الأحقاف .

وقد سمى ابن منظور كتابه «لسان العرب » وسميت المدرسة التى كان رأسها رفاعة بك الطهاوى « مدرسة الألسن » .

هذا وقد أباح رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسلمين أن يقرءوا القرآن بلهجات العرب .

وتلك الإباحة تفهم من الحديث الذى رواه صفوان بن سالم ويرشد إليها الحديث المرفوع « اقرءوا القرآن بلحون العرب وأصواتها » .

وقد جاءت تلك الإباحة لأنها فى الواقع لا تؤثر فى المعنى ولا تخل بنظم الآية ، وهذا النطق من القبائل مترتب على عادتهم اللغوية وطريقة أدائهم للألفاظ؛ فالقبيلة التى اعتادت ألسنتها على الإمالة يكون العسير عليها أن تنطق بالفتح ، والقبيلة التى تسهل الهمزة يكون من الشاق عليها تكلف النبر .

فليس من الممكن إذن التضييق على القبائل العربية بجعلها على نهج واحد وتسلك طريقاً بعينها مخالفة بذلك عادتها اللغوية أو لهجتها ؛ ودين الله يسر لا عسر ؛ إلا أن اللهجات المستكرهة التى فيها إبدال حرف مكان حرف أو زيادته كطمطانية حمير وكشكشة أسد وعنعنة تميم واستنطاء هذيل وسعد بن بكر والأزد والأنصار وغير ذلك من مستكره اللهجات تعتبر القراءة بها شاذة من الناحية الشرعية حيث لا تصح بها الصلاة والعبادات؛ أما من الناحية اللغوية والأدبية فلا خلاف فى أنها منهل مورود لطلاب اللغة وآدابها .

ويرجع الحظر من الناحية الشرعية على اللهجات المستكرهة

إلى ما اشترطه أئمة الشريعة فى القراءة الصحيحة من أنها يجب ألا تخرج عن كونها .

١ — صحيحة السند .

٢ — ووافقت العربية ولو بوجه .

٣ — ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالا . فإذا جمعت هذه الشروط تعد واجبة القبول سواء كانت من القراء السبعة المشهورين أم العشرة أم غيرهم من الأئمة المقبولين .

والذين انتهى إليهم من الصحابة سند القراء هم عمر وعثمان وعلى وعبد الله بن عباس والحسين بن على وعبد الله بن عياش المخزومى وعبد الله بن السائب المخزومى وهم قرشيون ، وعبد الله ابن مسعود من هذيل ، وأبى بن كعب وزيد بن ثابت وأبو الدرداء وهم من الأنصار ، وأبو موسى الأشعرى من الأشعريين وهى قبيلة يمنية ، وأبو هريرة من الأزد ، ثم صارت مكة والمدينة والبصرة والكوفة ودمشق مقراً لشيوخ القراءات فى صدر الإسلام .

فبمكة عبد الله بن كثير من القراء السبعة ، ومحمد بن محيصين من الأربعة عشر ؛ وبالمدينة نافع من السبعة ، وأبو جعفر من العشرة ؛ وبالكوفة عاصم بن أبى النجود ، وحمزة ، والكسائى من السبعة ، وخلف من العشرة ، وسليمان الأعمش من الأربعة عشر وبالبصرة ، أبو عمرو من السبعة ، ويعقوب من العشرة ، والحسن البصرى واليزيدى من الأربعة عشر ؛ وبدمشق عبد الله بن عامر من السبعة .

وقد اشتهر غير هؤلاء جماعة بالأمصار الخمسة السابقة كحميد بن قيس بمكة ، وشيبة بن نصاح بالمدينة ، ويحيى بن وثاب بالكوفة ، وعبد الله بن أبى اسحق الحضرمى بالبصرة ، وعطية ابن قيس الكلابى بالشام . إلا أن رواية قراءاتهم كاملة لم تدون كما دونت قراءات الأربعة عشر ولا يعرف عنهم إلا ما تناثر فى كتب التفسير والتراجم ؛ وما كان لهم من استاذية على بعض القراء المشهورين حيث اختاروا من قراءاتهم لأنفسهم ما وافق شروط الاختيار .

وأول من تتبع وجوه القراءات وتقصى الأنواع الشاذة فيها وبحث عن أسانيدها من صحيح ومصنوع هو هرون بن موسى القارئ المتوفى سنة ١٧٠ هـ إلا أنه لم يؤلف باستقصائه كتاباً . ثم جاء أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤ هـ فكان أول من استقصاها فى كتاب ، ويقال إنه أحصى منها خمساً وعشرين قراءة مع السبع المشهورة .

أما أول من اختار السبعة المشهورين فى عهدنا هذا فهو أبو بكر بن مجاهد وذلك فى أواخر القرن الثالث الهجرى ومفتتح الرابع .

ولم يكن الكسائى معدوداً من السبعة قبل عهد المأمون ؛ وقد كان من الأئمة قبل ابن مجاهد من أخرج حمزة والكسائى من السبعة وأدخل بدلا منهما أبا جعفر ويعقوب ؛ فلما جاء الإمام الشاطبى اختار من اختارهم ابن مجاهد وألف منهم منظومته حرز الأمانى المسماة الشاطبية فاقتصر عليهم المتأخرون تيمناً له اختصاراً واختيارا .

وقديماً كانت ثقافة القراء واسعة فلم ينصب أحد نفسه للاقراء بعد استنباط النحو ما لم يكن عالماً بالعربية وأوجه الخلاف فيها ، كما أنهم لم يعدوا المرء عالماً بالعربية ما لم يكن ملماً بالكثير من القراءات .

وفى بدء الإسلام لم تكن هناك حاجة إلى علم القارىء بالنحو الذى لم تستوف أصوله بعد وإن كان له مع ذلك إلمام واسع بمأثور العرب فى حين أن اللسان العربى صحيح والسليقة لم تفسدها العجمة . فإذا سرنا مع الزمن وجدنا كل قارىء إماما فى العربية بجانب إمامته فى القراءات .

فهذا أبو عمرو بن العلاء كان حجة فى كلام العرب ولغاتها وغريبها .

وهذا الكسائى جمع إلى إمامته فى القراءة إمامة الكوفيين فى النحو .

وهذا ابن مالك صاحب الألفية التى صارت مرجع كل عالم فى النحو كان حجة فى القراءات وإماماً . قدم الشام من الأندلس وصار شيخ الإقراء بالمدرسة العادلية بدمشق وألف قصيدة

دالية فى القراءات السبع ؛ أما الإمام الشاطبى صاحب المنظومة المشهورة فى القراءات فقد كان أعلم الناس بالعربية وعلومها (١) .

هذه نبذة مختصرة رأيت الإلمام بها قبل أن أعرض للقبائل ولهجاتها وأثرها فى القراءات .

قبيلة تميم :

هى من أشهر القبائل التى كان للهجتها أثر فى القراءات والعربية أقامت قديماً بتهامة ثم نزحت فى أواسط القرن الثانى قبل الهجرة نحو العراق واستقرت فى باديته وما يليها جنوباً آخذة جزءاً من نجد ، وتجاورها من ناحية الغرب قبائل أسد شمالا وقيس جنوباً ، وتجاورها من ناحية الجنوب بنو حنيفة من بكر بن وائل وعبد القيس من جديلة ، وتفصل بين بعض بطونها قبائل من بكر ابن وائل . وقد توزع كثير من التميميين فى الفتوح الإسلامية وشملت البصرة والكوفة فى مبدأ إنشائهما عدداً كبيراً منها .

ديانتها :

كانت الوثنية شاملة لجزيرة العرب قبل الإسلام ، وقد اتخذت القبائل بيوتاً للعبادة وأصناماً خاصة بها بجانب احترامها للكعبة. والأصنام المشهورة اللات والعزى ومناة ، فما كانت تنفرد به تميم صنم اسمه تيم ولهذا قيل لتميم كلها فى الجاهلية عبد تيم ؛ وكان لها بيت للعبادة اسمه « رضاء » ولها يقول المستوغر بن ربيعة حين هدمها فى الإسلام .

ولقد شددت على رضاء شدة فتركتها قفرا بقاع أسحما

وقد دخل جماعة من التميميين أيام الجاهلية فى المجوسية لقربهم من العراق التابع للفرس . وعبد جماعة منهم نجما يسمى الدبران ، وأسلمت تميم فى حياة الرسول ، فلما قبض إلى الرفيق الأعلى ادعت سجاح بنت الحارث فيهم النبوة فتبعوها ثم عادوا إلى الإسلام مرة أخرى وأسلمت متنبئتهم سجاح .

(١) العادلية مدرستان بدمشق : الكبرى أنشأها السلطان نور الدين ولم تتم ثم شرع فى إتمامها السلطان العادل أحد أخوة السلطان صلاح الدين الأيوبى وتوفى ودفن بها ولما تتم وإليه تنسب ، ثم أكمل بناءها ولده المعظم سنة ٦١٨ وكان بها فرع للقراء ممن تولى مشيخته أبو عبد الله محمد بن مالك صاحب الألفية . والعادلية الصغرى أنشأتها زهرة خاتون ابنة الملك العادل .

نسبها :

تميم قسمان : الصغرى وهم أبناء تميم (١) بن عبد مناة بن أد بن طابخة ابن إلياس بن مضر ، ومنهم قطام صاحبة عبد الرحمن بن ملجم قاتل على بن أبى طالب التى اشترط فى مهرها

ثلاثة آلاف وعبد وقينة وضرب على بالحسام المصمم

والكبرى وهى صاحبة الشهرة التى ترد عند الإطلاق وهى التى نعنيها بالبحث والمقصودة دائماً فى جميع الكتب هم أبناء تميم بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر ، ولها بطون وعشائر كثيرة أصبحت شبه مستقلة فى منازعاتها ومفاخراتها بل وفى بعض لهجاتها .

عاداتها :

كان للعرب فى الجاهلية عادات مختلفة شملتهم جميعاً ، منها وأد البنات وزجر الطير والاستقسام بالإزلام ، والعقر على القبور؛ غير أن أهل نجد ومنهم تميم قد يخالفون الحجازيين فى بعض العادات كما يخالفونهم فى اللهجات ، فالسانح من الطير والظباء وهو ما مر من ميامنك إلى مياسرك يتيمن به أهل نجد ويتشاءمون بالبارح وهو ما مر من ميامنك إلى مياسرك بعكس الحجازيين فيهما قال ذو الرمة وهو نجدى :

خليلى لا لاقيتما ما حييتما من الطير إلا السانحات وأسعد

وقال النابغة متشائماً بالبارح وهو نجدى .

زعم البوارح أن رحلتنا غداً وبذاك تنعاب الغراب الأسود

وقال كثير وهو حجازى ممن يتشاءم بالسانح .

أقول إذا ما الطير مرت مخيفة سوانحها تجرى ولا أستثيرها

هذا هو الأصل عندهم ؛ ثم قد يستعمل النجدى عادة الحجازى فمن ذلك قول عمرو بن قميئة وهو نجدى .

فبيتى على طير سنيح تحوسه وأشأم طير الزاجرين سنيحها

رجالاتها :

اشتهر من تميم كثير من الحكماء والزعماء والعلماء والشعراء

(١) كما فى العقد الفريد وتاريخ ابن خلدون؛ أما لسان العرب والقاموس والجمهرة ونسب عدنان وقحطان وسبائك الذهب والتأمل فاسمها تيم ولعله الأصوب وهناك تميم أخرى بطن من هذيل .

وغيرهم فى الجاهلية والإسلام منهم أوس بن حجر شاعر مضر فى الجاهلية ومن قوله :

أيتها النفس أجملى جزعاً إن الذى تحذرين قد وقعا

ومنها : الألمعى الذى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا

ومن قوله :

ولست بخابىء لغد طعاماً حذار غد ، لكل غد طعام

ومنهم أكثم بن صيفى حكيم العرب فى الجاهلية ، ومن حكمه : مصارع الرجال تحت بروق الطمع ، ومن جعل عرضه دون ماله استهدف للذم ، ومقتل الرجل بين فكيه. ومنهم حاجب بن زرارة من مشاهير فصحاء زمانه وفد على كسرى وضمن قومه برهن قوسه عنده ، ولذلك قصة مشهورة. ومنهم الأقرع بن حابس وفد على النبى صلى الله عليه وسلم وشهد فتح مكة وحنينا والطائف . ومنهم الأحنف بن قيس سيد تميم البصرة وعروة بن جرير أول خارجى قال : لا حكم إلا لله يوم صفين ، والمنذر بن ساوى صاحب هجر وقطرى بن الفجاءة الخارجى الأزرقى ومن قوله :

أقول لها وقد طارت شعاعاً من الأبطال ويحك لا تراعى

فإنك لو سألت بقاء يوم على الأجل الذى لك لن تطاعى

فصبراً فى مجال الموت صبراً فما نيل الخلود بمستطاع

ومنهم عبدالله بن أباض رئيس الأباضية من الخوارج ، وعبدالله ابن صفار رئيس الصفرية وجرير والفرزدق الشاعران ورؤبة ابن العجاج الراجز والسليك بن سلكة من العدائين المشهورين ومية صاحبة ذى الرمة وسجاح المتنبئة .

أما علماؤها فمنهم زفر الفقيه الحنفى وأبو عمرو بن العلاء وسنفرد له ترجمة خاصة ، وأبو عثمان المازنى النحوى والنضر بن شميل النحوى ويحيى بن أكثم قاضى المأمون غلب عليه حتى لم يتقدمه أحد من الناس جميعاً ، ولى أول الأمر قضاء البصرة وهو صغير فاستصغره أهلها وقالوا كم سن القاضى ؟ فعلم أنه قد استصغر فقال أنا أكبر من عتاب بن أسيد الذى وجه به النبى صلى الله عليه وسلم قاضياً على مكة يوم الفتح ، وأنا أكبر من معاذ بن جبل الذى وجه به النبى صلى الله عليه وسلم قاضياً على اليمن .

(للبحث بقية)

عبد الستار أحمد فراج

محرر بالمجمع اللغوى

إعـــلان

عن مباراة مجمع فؤاد الأول للغة العربية لأدباء العرب فى وادى النيل وغيره سنة ١٩٤٩ — ١٩٥٠

قرر مجمع فؤاد الأول للغة العربية منح مائتى جنيه أحسن قصة بالعربية الفصحى مخطوطة أو مطبوعة . بشرط ألا يكون تاريخ المطبوع منها قبل يناير سنة ١٩٤٧ ، على ألا تقل القصة المقدمة عن مائتى صفحة من القطع المتوسط (الذى لا تقل كلمات الصفحة فيه عن ١٨٠ كلمة) .

ويشترط أن يكون مدار القصة حول أحد الموضوعات الآتية : —

١ — بحث مشكلة اجتماعية عربية من مشاكل العصر الحاضر .

٢ — حياة بطل من أبطال العرب

٣ — موقف من مواقف العرب الحاسمة فى التاريخ .

***

وعلى الراغبين فى الحصول على هذه الجائزة أن يرسلوا إلى المجمع نسختين مطبوعتين أو مكتوبتين على الآلة الكاتبة من الموضوع المقدم للحصول على الجائزة فى موعد لا يتجاوز أول أكتوبر سنة ١٩٤٩ وسيحتفظ المجمع بنسختى الانتاج الفائز .

وللمتبارين أن يذكروا أسماءهم أو يختاروا أسماء مستعارة ، وعليهم أن يكتبوا عناوينهم واضحا ويوقعوا على كل نسخة يقدمونها .

ولا يجوز أن يدخل مسابقات المجمع الأدبية من سبق أن جازه المجمع على إنتاج له فى فرع المسابقة المقدم إليها ، ولا أن يعاد تقديم أى إنتاج أدبى سبق أن قدم للمجمع .

***

وترسل الموضوعات بعنوان : لجنة الأدب — بمجمع فؤاد الأول للغة العربية — شارع قصر العينى ١١٠ — القاهرة .

٥٩٩